واجب الأمة في المرحلة الراهنة

بقلم الشيخ؛ محمد بُوالنِّيت المراكشي

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم والصلاة والسلام على من صلى الله عليه وسلم، وبعد:

فإن المؤمنين بالله واليوم الآخر صنفان: أَهْلُ يَقِين، قد خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، بِمَا عَرَفُوهُ من دلائل الحق، وعلموه من بَيِّنَاتِ الدين، وثقفوه من حِكَمِ الشَّرع، وشاهدوه من آياتِ الكون، وذاقوه من حلاوةِ الإيمان، وشهدوه من عقبى الطاعة وغب المعصية؛ وَأَهْلُ إِسْلَام، قد اختلطت في قلوبهم مادة إيمان ومادة نفاق، لم يُدْرِكُوا من العلم الصحيح ما تطمئن به قلوبهم، ولم يُحَصِّلُوا من العَمَلِ الصَّالِحِ ما به يثبت إيمانهم.

فأما الصِّنف الأول، فإن الثَّبَاتَ على الحق شيمتهم، واليقين بالله خَاصَّتُهُمْ، لا تزلزلهم الأحداث، ولا تجرفهم الفتن، بل هم على الإيمان باقون، وَبِوَعْدِ الله موقنون، وعلى دين الله تعالى مصطبرون، لا يبتغون العزة في غير الإسلام، ولا يشعرون بالذلة وَالصَّغَارِ في حال الاستضعاف، فَهُمْ كما قال الله تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ المنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ}.

وأما الصنف الثاني، فإيمانهم رهين بالحال، لا يثبت أمام المحن العاصفة، ولا يَصْمُدُ أمام الفتن الجارفة، إن رجحت كفة المسلمين توطد يقينهم وقوي إيمانهم، وإن مالت كفة الكافرين كثرت شكوكهم وتزلزل اعتقادهم، فهم كما قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ، خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ، ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}، وكما قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ، فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ، وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ، أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ}، بل منهم من يَبْلُغُ به الحال إلى أن يقول كما ذكر الله تعالى: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورا}.

وهذه الفتن العظيمة التي لحقت بالأمة، والمصائب الكبيرة التي نزلت على أهْلِ هذه الملة، قد ألحقت الهزيمة بنفوس كثير من المسلمين، وزرعت الريب في أفئدة جُمُوع من أبناءِ هذا الدين، إذ استعظموا قوة الأعداء، ويئسوا من الظهور عليهم، واستبطؤوا نصرة الله تعالى.

ولَوْ فَقِهَ هؤلاء، لَعَلِمُوا أن الدنيا دار ابتلاء، وأنها أهون عند الله تعالى من جناح بعوضة، ولو كانت تساوي ذاك الجناح ما سقى منها كافرا شربة ماء، كما أخبر بذلك خاتم الأنبياء، ولكن الله تعالى يَبْتَلِي عباده بالسَّراء والضراء، ويبلوهم بالخير والشرِّ فِتْنَةً، ويستدرج الكافرين من حيث لا يعلمون، وهو سبحانه القائل: {وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً، لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ، وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ، وَزُخْرُفاً، وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحيَاةِ الدُّنْيَا، وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ}؛ ولو لم يأت في بَيَانِ هذا الأمر شرع منزل، لكان حَرِيًّا بالعقل الصريح أن يعرفَ اتضاع الدنيا وهوانها، إذْ كيف يُفْرَحُ بسؤدد مهما طال يزول ؟! أو بغنى لا يدوم ؟ وأي قيمة لنصر يعقبه موت المنتصر والمهزوم ؟ وأي اعتبار لِمُلكٍ يتلوه زوال المالك والمملوك ؟ وأي شأن لقوة يردفها قَبْرُ القوي والضعيف؟!

وهذه الأمور لو تأملها الإنسان بعقل ناصح لظهرت له حقيقتها، ولهذا جاء الوحي من الله تعالى يكشف للمؤمنين حقيقة الصراع في هذه الحياة الدنيا، وَيَدُلُّهُمْ على أن الثبات على دين الله تعالى والاعتصام بحبله أعظم عند الله تعالى من شأن النصر الدنيوي الظاهر، بل يجعل هذا النصر نفسه ثمرة من ثمار الأخذ بمقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر، الذي يعني النهوض بأسباب صلاح الإرادة وكمال القدرة الموجبين لتنفيذ الأمر الإلهي المتعلق بالدنيا والآخرة.

فإذا تبين هذا، عُلِمَ حينئذ لماذا أمر الله تعالى عباده ألا يغتروا بقوة الكافرين وظهورهم في الدنيا، ولماذا يُعَلِّقُ الله تعالى قلوب أهل الإيمان بالآخرة، وَيُعْلِمُهُمْ أن المصير فيها هو الفَيْصَلُ في الفوز أو الخسران، كما قال تعالى: {لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي البِلاَدِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ، ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهَاد}.

واجب الأمة في المرحلة الراهنة

بل أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُعَلِّمَ عباده أن تعجيل انتقامه من العاتين عن أمره، المعتدين على أوليائه، ليس حَتْماً لازماً، فإنما الدنيا دار ابتلاء واستدراج، وقد يكون فيها نوع عقاب وانتقام مما يظهر أو يخفى، فيلزم المؤمن ألا يَمُنَّ على الله بإيمانه، فيستجسر لعدم الأخذ على أيدي الكافرين والمعتدين، وألا ييأس من رحمة رب العالمين، وألا يظن بالله تعالى الغفلة عن المحاربين لدينه، الباغين على أوليائه، فإن الله تعالى لا يَعْجَلُ لِعَجَلَةِ النَّاس، كما أخبر بذلك رسوله الكريم ، وهو سبحانه قد أقام دون هذه الدنيا يوما آخر، يُؤَخِّرُ فيه تعالى العقوبة للظالمين، ويثار لأوليائه المتقين، ويقيم فيه موازين القصاص والعدل بين العالمين، قال الله تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ، مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ، وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ، أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ، وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ، وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ، وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ، وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ، فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ، يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ، وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ، سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ، لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ، هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ}.

هذا أَصْلٌ عظيم من أصول دين الله تعالى، وقاعدةٌ جليلة من قواعد الفهم عن الله تعالى، إذا لم يتدبرها المؤمن خِيفَ عليه من سوء الظن بالله تعالى، والشَّكِّ في وعوده تعالى، فَإِنْ تَدَبَّرَهَا، وَعَلِمَ ما تضمنته من قيام أمر الدنيا على الابتلاء والتمحيص، وقيام أمر الدين على الصبر واليقين، وقاه الله تعالى بفضله آثار البلايا، وأعاذه من الفتن ومزالق الأهواء والمحن.

وإن أهل الإيمان اليوم أشد حاجة إلى تدبر هذا الأصل النافع، فإن ما أصاب الأمة من بلاء شديدٍ ، وفتنة عامة مَاحِقَةٍ ، لا نجاة منها إلا بالاعتصام بأمر الله تعالى ، والثقة بوعوده سبحانه وتعالى .

واجب الأمة في المرحلة الراهنة

لكن العرفان بهذا الأصل لا يعني من قريب أو بعيد إسلاس القياد للقدر على فهم أهل الجبر، فإن القدر للإيمان والشرع للعمل، القَدَرُ فعل الله تعالى، والشرع أمره تعالى، فإن فُهِمَ قَدَرُهُ تعالى على وجه شرعي صحيح، لَزِمَ مع ذلك العملُ بشرعه على ما يناسب القدر بوجه سليم، ولا عمل بالشرع إلا بعد العلم به، ولا تعامل مع ما قُدِّرَ إلا بعد فهمه حق الفهم، ولذلك كان الاجتهاد في دين الله تعالى مشروطا بهذا وهذا، وبذلك جاء التحقيق عن أئمة العلم، إذ قالوا: (لاَ يَتَمَكَّنُ المفتي ولاَ الحاكمُ مِنَ الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفَهْم، أَحَدُهُمَا، فَهْمُ الواقع والفِقْهُ فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائنَ والأمارات والعلامات حتى يحيط بِهِ عِلْماً، والنَّوْعُ الثَّاني، فهم الواجب في الواقع، وهو فَهْمُ حُكْمِ الله الذي حَكَمَ به في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم في هذا الواقع، ثم يُطَبِّقُ أحدهما على الآخر) ([1]).

فلا بُدَّ من فقه الواقع ومعرفة الحال على التَّحْقِيق، ولا بُدَّ من فقه الدين ومعرفة الواجب على التَّعْيين، فإن كان المطلوب فقه واقع الأمة، ومعرفة واجبها، كان ذاك الأمر أَوْجَب، والحذر فيه أَبْلَغ، والاستعانة فيه بالله تعالى أَخْلَق؛ ولكن من رحمة الله تعالى بعباده، أنه كلما كان الأمر عاما، والخطب فيه هائلا، كلما كانت الدلائل لفهمه في دين الله تعالى أقرب، وطرق تحصيله أيسر، وذاك من مقتضى البيان التام الذي تكفل الله تعالى به، ومن لوازم الهدى الذي أخذ الله تعالى على نفسه أن يهونه على الطالبين، وأن يرشد إليه المسترشدين، وأن يسهله على الناس حق التسهيل، إذ قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ، وَأَنْزَلْنَا مَعَهُم الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}، وقال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم}.

وقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم بما يدل على هذا دلالة واضحة، ويكشف لكل ذي عقل، أن طريق الحق واضح، وأن مسلك الهدى أبيض، وأن الفاصل بين الحق والباطل أبلج، والبرزخ بين الإيمان والكفر جلي، وأن ما تكون به نجاة العامة وصلاح الأمة لا يمكن أن ينفرد بمعرفة الأفذاذ، وألا يثقفه إلا الأفراد، كما يظن بعض أدعياء الإصلاح، لا ثم لا، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (تَرَكْتُكُمْ عَلَى البَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لاَ يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلاَّ

---

[1] ابن القيم، أعلام الموقعين، 871.

هَالِـكٌ) [2]. وقـال : (تَرَكْـتُ فِيكُـمْ أَمْرَيْـنِ لَـنْ تَضِـلُّوا مَـا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّه) [3]. ولكـن الهـوى هـو الذي يطمس البصائر ويحول بين قلوب العباد والهدى.

ولو تأمل العبد واقع الأمة في هذا الزمان، واطلـع علـى مـا لحقها من ذل وهوان، واستقصى عن سبب ذلك فـي شـرع الملك الديان، لعلم علم اليقين أن داء الأمة جاءها من إتباع سنن الأمم السالفين، الذين سلكوا مسالك الجهل والظلم، وتركوا هَدْيَ المرسـلين، وأخـذوا بزخـارف الآراء ومضـلات الأهـواء؛ فلمـا سـلكت أمـة الإسـلام مسـلكهم، واسـتنت بسنتهم أصابها مـا أصـباهم، ولحقهـا مـن قـوارع الـدهر مـا لحقهم.

أمة الإسلام واتباع السنن :

يخطئ من يظن بأن أمة الإسلام إذا اتبعـت سـنن مـن كـان قبلها، فإن ذلك إنما يحصل لها في التفرق المشـؤوم الـذي عانت منه قديما ولا تزال، وهو التفرق الذي نتـج عـن إتبـاع الأهواء وإحداث البدع وتقديم آراء الرجـال، وَتَـرْكِ مـا كـان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من صحيح العلم وصالح العمل؛ والحق أن خبر النبي صلى اللـه عليـه وسـلم بأن الأمة ستتبع سنن من قبلها،لـم يجـئ علـى وجـه يُفْهَـمُ منه خصوص، بل جاءِ لفظ " السُّنَن " دالا على أن الأمة في عمومهـا سـتقتفي آثـار اليهـود والنصـارى، وستحصـد مـا حصدوا، إلا الذين استثناهم النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم ، وهم الطائفة الظـاهرة علـى الحـق، الصـابرة علـى لأوائـه، المصطبرة على مدافعة أعدائه، التي لم يصب فهمها لـدين الله تعالى دخل، ولم يتطرق إلـى عملهـا بـدين اللـه تعـالى دخن؛ أما ما كان من عموم أمة الإسلام فإن إتباعها للسـنن عام، لم يستثنه النص، ولم يخالفه الواقع.

ولو أراد المرء أن يستقصي المزالق التي دل الشـرع علـى أن الأمة سترتكس فيها، وما سيصيبها من فتن، لتبين له مـا سلف؛ ولكن أمة الإسلام مرحومة، لا يصيبها هوان دائم، ولا يعتريها سُـقْمٌ لازم، لأن أصـل دينهـا محفـوظ مـن التبـديل، ولأن الله تعالى يبعث لها على الدوام من يجدد أمرها، ولأن النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم بشـر باسـتمرار مـن يجاهـد الكائدين لها، ولأن وعود الله تعالى ورسوله صلى الله عليه

[2] رواه أحمد (16519)، وابن مـاجه فـي المقدمـة (43)، وهـو صحيح.
[3] أخرجه مالك برقم (1395) وغيره، وأصله في مسلم (2137).

وسلم لها قد تتالت باستئناف رسالتها، وارتجاع سيادتها، وظهورها على أعدائها؛ ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وإن المتأمل لحال المسلمين اليوم، ليرى دلائل صدق خبر النبي صلى الله عليه وسلم جلية، فقد أصاب الأمة في عمومها ما أصاب من قبلها، فَحَلّ محل العز الذل، ومحل النصر الهزيمة، ومحل العلم الجهل، ومحل السيادة الاستعباد، ومحل انتشار الطاعات فشو المعاصي، ومحل الشرع الأغر قوانين الظلم والطغيان، ومحل المعروف المنكر، وَعُظِّمَ فيها الجهال والعَلْمَانِيون، واحتقر فيها الدعاة والمصلحون، وحمي فيها من يطعن في الدين ويسب الإسلام، وَنُكِّلَ فيها بكل آمر بالمعروف ناه عن المنكر، وَنَبَذَ الناس كتاب الله وراءهم ظهريا، وحرفوا فهمه إذ لم يُمْكِنْهُمْ تحريف نصه، وعطلوا معالمه إذ لم يمكنهم تعطيل رسومه، فتكالبت الأمم على أمة الإسلام من كل جانب، وسلط الله تعالى عليها عدوه وعدوها، فأعمل فيها القتل والتنكيل والاحتلال، وأذاقها صنوف الذل والهوان، ونهب خيراتها وطاقاتها بنفسه أو بتوسط الأعوان، ولحقها من الفرقة وذهاب الريح وضياع الجاه ما لم يلحق أهل ملة في هذا الزمان، وَفُتِنَ عن الدين الأفراد والفئام، فصدق وعيد النبي صلى الله عليه وسلم بحقها، إذ حل بها ما حل بسابقيها، { سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا } .

ولا يظنن ظان أن أمة الإسلام إن تركت العمل بدين الله تعالى - كما هو حاصل اليوم - أنها أكرم على الله تعالى ممن قبلها، حتى لا يصيبها مثل ما أصاب أولئك، فقد قال تعالى: {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}؛ فَلَئِنْ سلط الله على السَّابقين القتل والسبي والخراب، فقد سَلَّطَ على أمة الإسلام ذلك، وأمثاله، من ظهور الأعداء، واستئثارهم بخيراتها وثرواتها، واحتلال بلدانها، وقتل كثير من أبنائها، والتنكيل بِخِيَّارِهَا، والتمكين للعَلْمَانِيِّينَ فيها، ومن لم يُستعمر منها بقوة العسكر والسلاح استعمر بالعمالة ودعوى الانفتاح، ومن لم يستعبد بالحرب والحصار، استعبد بالعَلْمَانِية والتغريب؛ وغير هذا مما لا يخفى إلا على كل غر غبي، ولا يستهين به إلا كل متخاذل مرجئي.

وما زال أعداء الأمة في الداخل والخارج يعيثون فيها فسادا، ويدمرون ما فيها من شيم وأخلاق، ويسطون على ما بها من ثروات وخيرات، حتى صار أمرها شبيها بأمر بني

واجــب الأمــة فــي المرحلة الراهنة

إسرائيل، حين أصابهم عذاب الله تعالى، لَمَّا بدلوا دين اللـه وطمسوا معالمه، وانحرفوا عن هـدي أنبيـائه، فسـلط اللـه عليهم من أذاقهم العذاب، كما سلط اليوم على المسـلمين مثل ذلك.

فلينظر كل عاقل في هذا، وليعتبر بقياس الأحوال، ولينهض بما يستوجب براءة الذمـة، والإعـذار إلـى اللـه تعـالى قبـل فوات الأوان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال الإمام ابن جريـر الطـبري : حـدثنا عصـام بـن رواد بـن الجراح قال ثنا سفيان بن سعيد الثوري قال ثنا منصـور بـن المعتمر عن ربعي بن حراش قال سمعت حذيفة بن اليمان يقول: قال رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم: (إِنَّ بَنِـي إِسْرَائِيلَ لَمَّا اعْتَدَوْا وَعَلَوْا، وَقَتَلُوا الأَنْبِيَّاءَ، بَعَثَ اللَّـهُ عَلَيْهِـمْ مَلِكَ فَارِسَ بُخْتُنَصَّر، وَكَانَ اللَّهُ مَلَّكَهُ سَبْعَ مِئَةِ سَـنَةٍ، فَسَـارَ إِلَيْهِمْ حَتَّى دَخَلَ بَيْتَ المَقْدِسِ فَحَاصَرَهَا وَفَتَحَهَا، وَقَتَلَ عَلَى دَمِ زَكَرِيَّا سَبْعِينَ أَلْفاً، ثُمَّ سَبَى أَهْلَهَا وَبَنِـي الأَنْبِيَّـاءِ، وَسَلَبَ حُلِيَّ بَيْتِ المَقْدِسِ، وَاسْتَخْرَجَ مِنْهَا سَبْعِينَ أَلْفـاً وَمِئَـةَ أَلْـفِ عَجَلَةٍ مِنْ حُلِيٍّ، حَتَّى أَوْرَدَهُ بَابِلَ) [4].

وقال الإمام ابن كثير الدمشـقي رحمـه اللـه تعـالى: (قـال إسحاق بن بِشْر: أنبأنا إدريس، عن وهب بن منبـه قـال: إن الله تعالى لَمَّـا بَعَـثَ أرميـا إلـى بنـي إسـرائيل وذلـك حيـن عظمت الأحداث فيهم، فعملوا بالمعاصـي، وقتلـوا الأنبيـاء، طمع بختنصر فيهـم، وقـذف اللـه فـي قلبـه وحـدث نفسـه بالمسير إليهم، لما أراد الله أن ينتقم به منهم، فأوحى اللـه إلى أرميا: " إِنِّي مُهلك بني إسـرائيل، ومنتقـم منهـم، فَقُـمْ على صخرة بيت المقدس يأتيـك أمـري ووحيـي ... انطلـق إلى قومك، فقم فيهم، وقل لهم: إن الله قد ذكركم بصـلاح آبائكم ... إن هؤلاء القوم رتعوا في مـروج الهَلَكـة، وتركـوا الأمر الـذي بـه أكرمـت أبـاءهم، وابتغـوا الكرامـة مـن غيـر وجهها.

أمـا أحبـارهم ورهبـانهم فاتخـذوا عبـادي خـولاً يتعبـدونهم ويعملون فيهم بغير كتابي، حتى أجهلـوهم أمـري وأنسـوهم ذكري وسنتي، وغروهم منـي، فـدان لهـم عبـادي بالطاعـة التي لا تنبغي إلا لي، فهم يطيعونهم في معصيتي.

وأما ملـوكهم وأمراءهـم، فبطـروا نعمـتي، وَأَمِنُـوا مَكْـرِي، وغرتهـم الـدنيا، حـتى نبـذوا كتـابي ونسـوا عَهـدي، فهَـم

[4] جامع البيان عن تأويل أي القرآن (2915).

واجــب الأمــة فــي المرحلة الراهنة

يجترئون على كتـابي، ويفـترون علـى رسـلي جـرأة منهـم، وغرة بي، فسبحان جلالي وعلو مكاني، وعظمة شأني، هل ينبغي أن يكون لي شريك في ملكي؟ وهل ينبغي لبشــر أن يطاع في معصيتي؟ وهل ينبغي لي أن أخلق عباداً أجعلهــم أرباباً من دوني؟ أو آذن لأحد بالطاعة لأحد وهي لا تنبغي إلا لي؟

وأما قراؤهم وفقهاؤهم، فيدرسون ما يتخيـرون، فينقــادون للملوك، فيتابعونهم علـى البـدع الـتي يبتـدعون فـي ديني، ويطيعونهم فـي معصـيتي، ويوفـون لهـم بـالعهود الناقضـة لعهدي، فهم جهلة بما يعلمون، لا ينتفعون بشيء مما عملوا من كتابي..

فــوعزتي لأعطلــن بيــوتهم مــن كتــبي وقدسـي، ولأخليــن مجالسـهم مـن حـديثها ودروسـها.. ثـم لأدوسـنهم بـأنواع العذاب حتى لو كان الكائن منهم في حالق لوصل ذلك إليه.

إني إنما أُكْرِمُ من أكرمني، وإنما أهين من هان عليه أمـري. . إني أبتدئ عبادي برحمتي ونعمتي، فإن قبلوا أتممت، وإن اسـتزادوا زدت، وإن شـكروا ضـاعفت، وإن غيـروا غيـرت، وإذا غيروا غضبت، وإذا غضبت عذبت، وليـس يقـوم شـيء بغضبي ".

فقال أرميا: ... " يا رب سـبحانك وبحمـدك، وتبـاركت ربنـا وتعاليت، أتهلك هذه القرية وما حولها وهي مساكن أنبيائـك ومنزل وَحْيِكَ؟ يا رب سبحانك وبحمدك وتبـاركت وتعـاليت، لَمَقْتَـلُ هـذه الأمـة وعـذابك إيـاهم وهـم مـن ولـد إبراهيـم خليلك، وأمة موسى نَجِيِّـكَ، وقـوم داود صَـفِيِّكَ، يـا رب أي القرى تأمن عقوبتـك بعـد؟ وأي العبـاد يـأمنون سـطوتك .. تُسَلِّطُ عليهم عبدة النيران ". قال الله تعـالى : " يـا أرميـا، من عصاني فلا يستنكر نقمتي ... يا أرميا، إني قدستك فـي بطن أمك، واخترتك إلى هذا اليوم، فلـو أن قومـك حفظـوا اليتامى والأرامل والمساكين وابن السـبيل، لكنـت الـداعم لهم ... ") ([5]).

قال شيخ الإسلام ابن تيميـة رحمـه اللـه: (وقـد قـدمت مـا خرجاه في الصحيحين عـن أبـي سـعيد رضـي اللـه عنـه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لَتَتَّبِعُنَّ سُـنَنَ مَـنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ القُـذَّةِ بِالقُـذَّةِ حَتَّـى لَـوْ دَخَلُـوا جُحْـرَ ضَـبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ " قالوا يا رسول الله: اليهود والنصـارى؟ قـال: "

[5] البداية والنهاية (30/2-32) باختصار.

فَمَن "، وما رواه البخاري عن أبي هريرة رضيَ الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لَتَأْخُذَنَّ أُمَّتِي مَأْخَذَ القُرُونِ قَبْلَهَا شِبْراً بِشِبْرٍ وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ " قالوا: فارس والروم؟ قال: " فَمَنِ النَّاسُ إلاَّ أُولَئِكَ ". وهذا كله خرج منه مخرج الخبر عن وقوع ذلك والذم لمن يفعله، كما كان يخبر عما يفعله الناس بين يدي الساعة من الأشراط والأمور المحرمات، فَعُلِمَ أن مشابهة هذه الأمة اليهود والنصارى وفارس والروم مما ذمه الله ورسوله وهو المطلوب. ولا يُقَالُ فإذا كان الكتاب والسنة قد دلا على وقوع ذلك فما فائدة النهي عنه، لأن الكتاب والسنة أيضاً قد دَلاَّ على أَنَّهُ لاَ يَزَالُ فِي هَذِهِ الأمة طائفةٌ مُتَمَسِّكَةٌ بالحق الذي بعث الله به محمدا إلى قيام السَّاعة، وأنها لا تجتمع على ضلالة، ففي النَّهْيِ عن ذلك تكثير لهذه الطائفة المنصورة وتثبيتها وزيادة إيمانها فنسأل الله المجيب أن يجعلنا منها) ([6]).

الطائفة المنصورة بارقة أمل :

قال الله تعالى: {فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِين}. قال ابن كثير رحمه الله: (يقول تعالى: فَهَلاَّ وُجِدَ من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشُّرُور والمنكرات والفساد في الأرض، وقوله تعالى: {إِلاَّ قَلِيلاً}، أي قد وُجِدَ منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه، وفجأة نقمته) ([7]).

وقد قضى الله تعالى قضاء لا يرد على لسان رسوله: (أن فئة من أمة خاتم الأنبياء باقية إلى قيام الساعة، لا تُهَدِّلُ إذا بدل الناس، ولا تَفْسُدُ إذا فسد الناس، ولا تُذَلُّ إذا ذلّ الناس).

وإذا كان للطوائف العاملة للإسلام اليوم أن تزعم أنها سائرة على منهج الرسول ، بل ويستطيع بعضها أن يَدَّعي أنه الطائفة المنصورة التي وَعَدَ النبي صلى الله عليه وسلم ببقائها ودوامها وظهورها، فإن للذين يدافعون أعداء الملة والدين، وينصرون الإسلام والمسلمين، أن يفرحوا بما اختصهم الله تعالى بهم من دون خلق الله جميعا من التفرد بِالذَّودِ عن حياض الدين، ومدافعة أهل الكفر

---

[6] اقتضاء الصراط المستقيم، ص (44).
[7] التفسير (3094).

والظالمين؛ وَلِمَ لاَ يَفْرَحُونَ وقد امتن الله سبحانه وتعالى عليهم كما امتن على أصحاب رسول الله حين اختصهم بخير لم يشاركهم فيه غيرهم، فضلا من الله ورحمة، فقد أخرج البخاري في صحيحه برقم (567) ومسلم برقم (1014)ـ عن أبي موسى الأشعري قال: كنت أنا وأصحابي الذين قَدِمُوا مَعِي في السَّفينة نزولا في بقيع بطحان، والنبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فكان يتناوب النبي صلى الله عليه وسلم عند العشاء كل ليلة نَفَرٌ منهم، فوافقنا النبي صلى الله عليه وسلم أنا وأصحابي، وله بعض الشغل في بعض أمره، فأعتم النبي صلى الله عليه وسلم حتى ابْهَارَّ الليل، ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم فصلى بهم، فلما قضى صلاته قال لمن حضره: (عَلَى رِسْلِكُمْ أَبْشِرُوا، إِنَّ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يُصَلِّي هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرُكُم)، قال أبو موسى: فرجعنا ففرحنا بما سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فَحُقَّ أن يُقَالَ لمن ينصر الإسلام في هذا الزمان اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم: (أبشروا، إن من نعمة الله عليكم أنه ليس أحد من الناس ينصر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في هذه السَّاعة غيركم).

وأيم الله، إنهم لأَهْلٌ لذلك، وقد أقاموا أمر الله تعالى إذ ضيعه غيرهم، ورفعوا لواء الحق إذ خذله سواهم، فهم أسعد الناس في هذا الزمان العصيب بالنجاة من الفتن المتلاحقة، التي ألحقت أقواماً بالمشركين، وَزَرَعَتِ الرَّيْبَ في قُلُوبِ ضِعَافِ اليقين، وأوقعت الهزيمة في نفوس كثير من المسلمين، وهي الفتن التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم في مثل قوله:

(إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقّاً عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلاَءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ هَذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ النَّاسَ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْه) [8].

---

[8] رواه مسلم برقم (3431).

وقوله : (بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً وَيُمْسِي كَافِراً، وَيُمْسِي مُؤْمِناً وَيُصْبِحُ كَافِراً، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا) ([9]).

وكيف لا يَقِيهِم الله تعالى الفتن المظلِمة، والبلايا المدلهمة، والذُّلَّ الذي عم الأمة، وهم مِنْ بَين خلق الله تعالى كلِّهِمْ لَمْ يتركوا سبب العزة، ولم يَتَلَبَّسُوا بِمُوجِبَاتِ الذِّلة، التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَاتَّبَعْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلاً، لاَ يَرْفَعُهُ عَنْكُمْ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ) ([10]).

ولهذا فقد ضَمِنَ الله تعالى لهم ما لم يضمن لغيرهم، فجعلهم أخص بالهداية من غيرهم، وأحق بالحق ممن دونهم، تحقيق ذلك فيما ذكره شيخ الإسلام إذ يقول: (ولهذا كان الجهاد مُوجِباً لِلْهِدَايَةِ التي هِيَ محيطة بأبواب العلم، كما دل عليه قوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}، فجعل لمن جاهد فيه هداية جميع سبله تعالى، ولهذا قال الإمامان عبد الله بن المبارك وأحمد ابن حنبل وغيرهما: " إذا اختلف الناسُ في شَيْءٍ فانظروا مَاذَا عليه أهل الثغْرِ فإن الحق معهم، لأن الله يقول: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} ") ([11]).

فإن أخذتك رِيبَةٌ فيما قاله ذانك الإمامان الجليلان وغيرهما من أئمة السلف، فاسمع برهانا -آخر- لذلك من قول الله تعالى: {وَالَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُم}.

فلا يبقى بعد هذا شك في أنهم المقصودون بالطائفة الثابتة، الموسومون بالهداية والرفعة، الموعودون بالنصرة والظهور، وأن من خالف فهمهم للدين فهو المخذول، وأن شانئهم هو الأبتر المرذول، ولا يطعن فيهم إلا كل عميل دنيء، أو مرجئي رديء، قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: (أخرج البخاري ومسلم من حديث المغيرة بن شعبة أنه قال: " لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُون "... ثُمَّ قَدْ وَرَدَ هَذَا الأَمْرُ الَّذِي يَتَمَسَّكُونَ بِهِ وَيَظْهَرُونَ عَلَى غَيْرِهِمْ بِسَبَبِهِ فأخرج مسلم من حديث عقبة مرفوعاً: " لاَ تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي

---

[9] رواه مسلم برقم (169) .
[10] رواه أحمد (4765)، وأبو داود برقم (3003)، وهو حسن.
[11] مجموع الفتاوى (44228) .

يُقَـاتِلُونَ عَـنْ أَمْـرِ اللـهِ قَـاهِرِينَ لِعَـدُوِّهِمْ لاَ يَضُـرُّهُمْ مَـنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ") ([12]).

ولهذا، فَمَعَ ما أصاب الأمة من ذل وهوان، وما تسلط عليها من ظلم وطغيان، وما فشى فيها من فساد وانحلال، بسبب تفريطها في سنن الشرع، وتقصيرها في سنن الكون، وإتباعها لسنن الأمم السالفة، لم يزل - بحمد الله - أنصار الدين في ارتفاع وعز وظهور؛ لم يثن عزمهم تكالب الأعداء والمخَذِّلين، ولم يفل صبرهم تراكم الفتن التي أَوْقَعَتْ مرضى القلوب والمنافقين، وأقعدت اليائسين والمنهزمين، بل ما زالوا بفضل الله تعالى في خير وازدياد، ينكأون المُغَيِّرين للدين الناشرين للفساد، ويدافعون العدو الصائل على البلاد، وَيَنْعَمُونَ بِالعِزِّ الذي افتقدته الأمة لَمَّا تَرَكتِ الجِهَادَ، وَيُقِيمُونَ دِينَ اللَّه تعالى على من تحت أيديهم من العباد، لا يشتد عليهم تهويش أهل التخذيل وتشويش الخصوم إلا انفتح لهم منبر للبيان، ولا يزداد بطش الأعداء واستطالة أهل الطغيان إلا فُتِحَ لهم باب للنزال، وتوطد يقينهم بقرب مجيء النصر من الملك الديان؛ {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيز}.

فأهل الثغور إن شاء الله تعالى هم أمل هذه الأمة، وسبب ارتفاع الظلمة، وأن ما هم عليه في هذا الزمان من عقيدة التوحيد، وهدي سيد المرسلين، والبراءة من الطغاة والظالمين، واتباع منهج السلف الصالحين، سيفتح على الأمة باب الخير الذي انسد من زمن، ويجدد لها دينها الذي غطت عليه الفتن، ويدفع عنها الظلم الذي خلف فيها المحن.

وسيكونون بإذن الله تعالى سببا لدفع طغيان الجبارين في هذا الزمان، وأفول نجم المستكبرين على أمة الإسلام، وَتَحَقُّقِ ما وعد به النبي صلى الله عليه وسلم ، من قيام خلافة على منهاج النبوة، ورجوع الدولة للإسلام، {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِين}.

مآل الطغيان وتداول الأيام :

---

[12] إرشاد الفحول، ص (142-143) .

واجــب الأمــة فــي المرحلة الراهنة

لقـد بلـغ الانبهـار بحـال الكـافرين ومـا هـم عليـه مـن قـوة ونظام، وما حصلوه من تقنية لم يعرف التاريخ لها مثيلا، بلغ الانبهار بذلك من قبل بعـض ضـعاف النفـوس والبصـائر أن ظنوا أن سنن الله تعالى في خلقه قد تبدلت، وأن نـواميس الدهر قد تخلفت، وأن أمريكا التي طغـت وتجـبرت، وعتـت وظلمت، لن تدور عليها دوائر الدهر ما دامـت " متقدمـة "، ولن ينالها العطل ما دامـت بيـدها التقنيـة المتطـورة ! ولـو كان الأمر على خلاف ذلك لأصـابتها جريـرة ظلمهـا القـديم وطغيانها الحديث !

فلسان حال هؤلاء يقول :

ألم تظلم أمريكـا الهنـود الحمـر، فسـحقتهم واحتلـت بلادهم بشكل لم يعرف التاريخ لها مثيلا ؟

ألم تظلم أمريكا الأفارقة، إذ ارتكبت في حقهم أشـنع وأقبح تهجير في تاريخ الإنسانية؟

ألم تظلم أمريكا اليابانيين، فحصـدت أرواح المـدنيين بالملايين، وجربت فيهم الأسلحة التي لم يعهدها البشر؟

ألم تظلم أمريكا الفيتناميين فأعملت فيهـم التحريـق والتدمير؟

ألم تظلـم أمريكـا كوريـا وكوبـا ونيكـاراغوا والشـيلي وغيرهم، فاعتدت عليهم في أوطانهم وأشاعت الـدمار فـي بلادهم؟

ألم تظلم أمريكا المسلمين إذ سـاندت مـن يحكمهـم بالحديد والنار ويفسد أديانهم وأخلاقهم ويبدد خيراتهـم ذات اليمين وذات الشمال؟

ألم تظلم أمريكا الإمـارة الإسـلامية فـي أفغانسـتان، فاستغلت ضعفها وقلة ذات يدها، فتطاولت عليها بالتشويه، وحاصرتها بغير ذنب اقترفته، ثم حاربتها وأسقطتها؟

ألـم تظلـم أمريكـا العراقييـن بالحصـار الجـائر، ثـم بالحرب الشعواء، ثم بالاحتلال الغاشم؟

ألم تظلم أمريكا أهل فلسطين فأطلقت فيهـم أيـادي مــن يقتــل أبنــاءهم ويســتحي نســاءهم ويفســد الحــرث والنسل؟

ألم تظلم أمريكا العالم بأسره بـأن حـالت بينـه وبيـن تَبَيُّــن الحــق، ففتنــت النــاس بإعلامهــا، وأفســدت الأخلاق بمبادَئها، ولم تراع لقوي هيبته، ولا لضعيف حرمته؟

فهذا بعض ما تلبسـت بـه أمريكـا مـن ظلـم وطغيـان، فَلِـمَ تأخرت عنها السنن، ولـم لـم تطلهـا عاقبـة البغـي وجريـرة الإفساد؟

واجب الأمة في المرحلة الراهنة

إن كان المستفسر عن هذا يروم كشف ما عَلِقَ بنفسه من ريب بوعيد الله بالظالمين، ووعده لأهل الحق المستضعفين، وسننه الجارية على الطاغين المعتدين، فَلْيَعْلَمْ أن الله تعالى لا يعجل لعجلة أحد، وأن مقاديره تجري حسب حكمته, ثم ليلحظ السائل بعد ذلك جملة أمور:

أولاً: إن قوة أمريكا أهون عند الله تعالى مما قد يظنه الظان، بل أي شيء تساوي الأرض وما عليها أمام العظمة الهائلة الساحقة للكون المخلوق، فضلا عن عظمة الخالق جل وعلا، ولو شاء الله تعالى أن يعطل آلياتها المتطورة بأيسر الأسباب لفعل، ولقد رأى العالم من ذلك مثالا، فَمَرُّوا عليه كما يمرون عن أكثر آيات الله وهم غافلون، وذلك حين أعاقت الرياح العاتية حركة الكثير من طائرات أمريكا وآلياتها في بدء عدوانها على بلاد العراق، بل لو شاء الله تعالى لسلط عليهم ما هو أهون من ذلك، مما لا يملكون معه حيلة، أو يجدون معه سبيلا، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عما سَيُهْلِكُ الله تعالى به من سيفسد في الأرض على عهد عيسى حين نزوله إلى الأرض جذاء قيام الساعة، فإن عيسى ومن معه إذا أعياهم شأن يأجوج ومأجوج، ولم يجدوا ما يدفعون به شَرَّهُمْ وفسادهم، ولم يقدروا عليهم، فإنهم يلجأون إلى ما فَرَّط فيه المسلمون اليوم إلا قليلا، فكان تفريطهم سببا إلى تأخر النصر، وتمادي الطغيان، فقد أخرج الإمام مسلم برقم (2938) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الدجال وَقَتْلَ عيسى لَهُ، ثم خروج يأجوج ومأجوج، ثم قال: (ويُحْصَرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمْ اليَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ - يعني يأجوج ومأجوج - النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ). وماذا ينفع تطور العلم وتقدم الطب لو سُلِّطَ على الكافرين المعتدين مثل ما سيسلط على يأجوج ومأجوج، وما وَبَاءُ الالتهاب الرئوي الذي يحصد الأرواح ويشيع الهلع هذه الأيام، إلا مثال عن ذلك، ولكن أكثر الناس عن آيات الله غافلون.

ثانياً: إن تأخر النصر وتأجيل الأخذ على يد الظالمين المتجبرين، فيه خير كثير للمسلمين، فقد جعل الله تعالى هذه الدنيا دار ابتلاء، في السراء والضراء، كما قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْض}، وإن من حكمة هذا الابتلاء اليوم أنه لم يزل يكشف عن

خبايـا النُّفُـوس، ويسـقط الأقنعـة عـن الوجـوه والـرؤوس، ويمايز بين الصفوف، فإن النفاق الذي عم وطم، قد جـاءت هذه النكبات المتتالية، والهزات المتلاحقة، لتكشفه، ولتقيم عند أهله حجة من أنفسهم على أنفسـهم، و (لاَ أَحَـدَ أَحَـبُّ إِلَيْهِ العُذْرُ مِنَ اللَّه)، كما أخبر النبي صلى اللـه عليـه وسـلم عند البخاري (6686)ـ ومسـلم (5572)؛ وقـد جعـل اللـه تعالى ظهور الأعداء، وتلاحق الفتن والبلاء، سببا للتمحيـص، قال تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَـا أَنْتُـمْ عَلَيْـهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّب}، ولا أعظم في إقامة الحجـة من ظهورها لصـاحبها مـن نفسـه، فلهـذا صـار الأمـر بهـذه الأحداث العظيمة التي أصابت الأمـة أبلـج، ولـم يعـد لأهـل النفاق فيه مخرج، فتمايزت بحمـد اللـه الصـفوف، وخلـص أهل الحق م ن بيـن أهـل النفـاق، وانحـاز كـثير مـن أدعيـاء الإصـلاح ومـدعي العلـم إلـى قوافـل الخـذلان والخسـران، وصاروا يرددون ما يردده أعداء الدين، ويسهمون في تثبيط أهــل الحــق، وتخــدير المســلمين، ويبثــون الهزيمــة فــي النفوس، ويصورون الخنـوع فـي صـورة الفضـيلة، والغيـرة على الدين في صورة الغلو والرذيلة، ويتسترون على خيانة الخائنين، وعمالة الدخلاء، التي ما عـادت تخفـى علـى أحـد من العـالمين، ولا يجـدون غضاضـة فـي خدمـة العَلْمَ انيين، وممالئـة أعـداء الـدين، والـترقيع للـذين بـدلوا ديـن اللـه، ونشروا الخنى والفساد، حتى بلغ الأمر ببعضهم إلى الإفتــاء بإعانة الكافرين علـى قتـل المسـلمين، واسـتباحة أرضـهم وأعراضهم، وطمس معالم دينهم، باسـم العلـم والمصـلحة الشرعية. والله المستعان.

ولعمر الله إن نفاق هـؤلاء الـذين يتسـربلون بلبـوس العلـم ويتزيون بلباس الحكمة قرين لريائهم، والريـاء خاصـة أهـل النفاق، كما دل على ذلك كتاب الله تعالى، فلا غـرو أن يُعِـدَّ الله تعـالى لعلمـاء السـوء الـذين يضـلون الأمـة، ويعيقـون أسباب نهضتها، ويمكنون لأعداء الله فيها، أن يُعِدَّ لهـم مـن العذاب ما لم يعده لغيرهم من العالمين، فقد روى الـبيهقي في السنن، بسند حسن، من حـديث علـي رضـي اللـه عنـه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يتَعَوَّذُوا بِـاللَّهِ مِنْ جُبِّ الحُزْنِ)، قيل: يا رسول الله وما جب الحزن؟ قال: (وَادٍ فِي جَهَنَّمَ، تَتَعَوَّذُ مِنْهُ جَهَنَّمَ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً، أَعَـدَّهُ اللَّهُ لِلْقُرَّاءِ المُرَائِينَ).

ويظهـور كمـائن المنـافقين، وخيانـة المتسـترين، وضـغائن العَلْمَانيين، انجلى الفرقان بين صـف أهـل الإيمـان، وصـف أهل الضلال والطغيـان والخـذلان، فكـان الأمـر مثلمـا قـال

النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما حَدَّثَ بِهِ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنا قعوداً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الفتن فأكثر من ذكرها حتى ذكر فتنة الأحلاس، فقال قائل: يا رسول الله، وما فتنة الأحلاس؟ قال: (هِيَ هَرَبٌ وَحَرْبٌ، ثُمَّ فِتْنَةُ السَّرَّاءِ، دَخَلُهَا أَوْ دَخَنُهَا مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَزْعُمُ أَنَّهُ مِنِّي وَلَيْسَ مِنِّي، إِنَّمَا أَوْلِيَائِي الْمُتَّقُونَ. ثُمَّ فِتْنَةُ الدُّهَيْمَاءِ لاَ تَدَعُ أَحَداً مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ إِلاَّ لَطَمَتْهُ لَطْمَةً، فَإِذَا قِيلَ انْقَضَتْ عَادَتْ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِناً وَيُمْسِي كَافِراً، حَتَّى يَصِيرَ النَّاسُ إِلَى فُسْطَاطَيْنِ، فُسْطَاطُ إِيمَانٍ لاَ نِفَاقَ فِيهِ، وَفُسْطَاطُ نِفَاقٍ لاَ إِيمَانَ فِيهِ) ([13]).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كَيْفَ بِكُمْ وَزَمَانٌ أَوْشَكَ أَنْ يَأْتِيَ يُغَرْبَلُ النَّاسُ فِيهِ غَرْبَلَةً، وَالنَّاسُ قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ، وَاخْتَلَفُوا فَكَانُوا هَكَذَا، وشبك بين أصابعه؟ قَالوا: كيف بنا يا رسول الله؟ قال: تَأْخُذُونَ مَا تَعْرِفُونَ وَتَدَعُونَ مَا تُنْكِرُونَ، وَتُقْبِلُونَ عَلَى أَمْرِ خَاصَّتِكُمْ، وَتَذَرُونَ أَمْرَ عَامَّتِكُم) ([14]).

ثالثاً: إن تأخر النصر، وتمادي الشر، مدعاة للخوف والحذر، لا لليأس والقنوط، فإن من سنن الله تعالى في أهل الظلم والطغيان، أن يستدرجهم، ويمهلهم إلى أجل مضروب، لا يستقدمون عنه ولا يستأخرون، ويرسل عليهم بين ذلك ما يذكرهم بآياته، ويقيم عليهم حججه وبيناته، ويخوفهم من عقوبته وانتقامه، قال تعالى: {وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ}، ولكنهم لا يذكرون ولا يرجعون، ولا يزيدهم إلا طغياناً كبيرا، بل يظنون لقلة عقولهم، وقصر نظرهم، وانطماس بصائرهم، وبرودة مشاعرهم، أن ما يدركونه من خير زائل دليل على أنهم يحسنون صنعا، قال تعالى: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّ مَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ}، ولو تأمل العاقل، لعلم أن تأخر الدوائر عن أمريكا وأذنابها، مع ما جاءت به في مدتها من بغي وظلم، وعدوان منقطع النظير، على الناس عموما، وعلى أهل الإسلام خصوصا، إنما ذلك لأن ما سيصيبها من نفسها، أو بأيدي المؤمنين، أو من عند الله تعالى، سيكون أنكى

---

[13] رواه أحمد (6168)، وأبو داود (4242)، وغيرهما، وقال شعيب الأرنؤوط إسناده صحيح، شرح السنة للبغوي (15/20).
[14] أخرجه أحمد (2202)، وأبو داود (4/3432)، وغيرهما، وصححه الألباني.

وأشد، وربما عـم ولـم يخـص، وبلـغ مـا بلـغ الليـل والنهـار، وطال جميع الدائرين في فلكها، المعاونين لها في طغيانها، إن لم يتوبوا ويقلعوا، قـال الله تعالى: {وَمَـا أَرْسَـلْنَا فِـي قَرْيَـةٍ مِـنْ نَبِـيٍّ إِلاَّ أَخَـذْنَا أَهْلَهَـا بِالْبَأْسَـاءِ وَالضَّـرَّاءِ لَعَلَّهُـمْ يَضَّرَّعُونَ، ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَـوْا وَقَـالُوا قَـدْ مَـسَّ آبَاءَنَـا الضَّـرَّاءُ وَالسَّـرَّاءُ فَأَخَـذْنَاهُمْ بَغْتَـةً وَهُـمْ لاَ يَشْعُرُونَ}، وقال تعالى: {وَكَأَيِّ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَـا وَهِـيَ ظَالِمَةٌ، ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ}، وقال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَـى ظَهْرِهَـا مِـنْ دَابَّـةٍ،وَلَكِـنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَـإِذَا جَـاءَ أَجَلُهُـمْ لاَ يَسْـتَأْخِرُونَ سَاعَةً، وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ}.

ألا ترى إلى أوربا وما أصابها في الحربين العالميتين الأولـى والثانية، من فشو القتل في أبنائها بما لم يعرف التاريـخ لـه مثيلا، وانتشار الدمار في أرجائها، وما ذلك إلا بِسَبَبِ عتوها، وفسادها فـي الأرض، وعـدوانها علـى المسـلمين، وقهرهـا للمستضــعفين، واســتعمارها لبلادهــم، وســطوها علــى خيراتهم، فتلك كانت عاقبتهم، ولعل ما ينتظر العـالم أجمـع من مشـاركة أمريكـا فـي ظلمهـا، أو السـكوت عـن بغيهـا، وخاصة على أهل الإيمان، والمستضعفين من أهل الإسلام، يُنْـذِرُ البشـرية بهلاك شـامل، ولربمـا هـو الـذي أشـار إليـه الصادق المصدوق فيما أخرجه البخاري (5577)، ومسلم (4827)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنـه عـن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيَنْقُصُ العِلْـمُ - أو العَمَـلُ - وَيُلْقَـى الشُّـحُّ، وَتَظْهَـرُ الْفِتَـنُ، وَيَكْثُـرُ الهَـرْجُ، قالوا: يا رسول الله، إيما هو ؟ قال: القَتْلُ، القَتْلُ)، وأخـرج البخاري (978) من رواية أبي هريرة رضـي اللـه عنـه عـن النبي صلى الله عليه وسلم قـال: (لاَ تَقُـومُ السَّاعَةُ حَتَّـى يُقْبَضَ العِلْمُ وَتَكْثُرَ الزَّلاَزِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الهَرْجُ)، وأخـرج الإمـام أحمـد (16350) مـن حـديث سلمة بن نفيل السكوني قال: قال رسول اللـه صـلى اللـه عليه وسلم : (بَيْنَ يَدَيْ الساعةِ مَوَتَانٌ شَدِيدٌ وَبَعْدَهُ سَنَوَاتُ الزَّلاَزِلِ).

وأيم الله، إني كلمـا تـدبرت أحـاديث الفتـن، ومـا جـاء عـن الصادق المصدوق من أخبار الملاحم، وتأملت ما زخرت بـه حضارة اليوم من أسـباب الإفسـاد والإفقـار والهلاك للبيئـة والإنســان، إلا وأيقنــت أن الحضــارة المعاصــرة آيلــة إلــى الــزوال، وأنهـا كحلـم عـارض فـي مسـيرة الإنسـان، وأن البشرية ستعود إلى ما كانت عليه في سالف الزمان.

واجــب الأمــة فــي المرحلة الراهنة

فإن ما صارت إليـه البشـرية عمومـاً مـن فسـاد عـام غيـر مسبوق، ينذر بخطر عظيم غير معهود، فإن تاريـخ الإنسـان لم يعرف حالاً مماثلاً لما عرفه في هذا الزمان، من انقلاب المعـايير وأخلاق البشـر، ومسـخ شـديد لشـخص الإنسـان، وتقنين للمنكر والفساد، وفشو للفاحشة، والإعلان بالشذوذ والسحاق، والتلاعب بالخلق بالتبـديل والتغييـر، وقـد تمكـن الكفـار مـن وسـائل ماديـة هائلـة، وقنـوات تـأثير وإعلام، وأدوات دمار خيالية، استعملوها للعلو في الأرض والإفساد، واستضعاف أهل الإيمان، وظلم دعاة التوحيد، ومنـع إقامـة شرع الله فـي الأرض، واجتمعـت فـي شـعوب العـالم كـل المفاسد التي أهلـك اللـه بسـببها مـن مضـى مـن الأقـوام، وظهرت فيهـم الأحـداث العظـام، وسـخر الإنسـان كـل مـا تمكن منه من علوم وتقنيات من أجل الصد عن سبيل اللـه تعالى، ومحاربة دعاة الإصلاح، والحيلولة دون التمكين لدين اللـه تعـالى فـي الأرض، ممـا جعـل الكـثير مـن الـدعاة والحركات يزينون الإسلام ويحـذفون منـه وينقصـون رغبـة في تسهيله على حثالة بني الإنسـان الـتي تعيـش فـي هـذا الزمان. فانتكس الإنسان وَمُسِخَت فطرته وأحيانـا خِلقطـه باسم العلم والتحكم في القوانين الكونيـة، فـإن مبـدأ هـذه الحضارة هـو مـا زَعَمَـهُ رواد عصـر " النهضـة " ومفكـرو " الأنـوار " ودجاجلـة " الحداثـة " مـن قُـدرة الإنسـان علـى إدراك نواميس العالم والتحكم في الطبيعة لصالحه، وتدبير كل الأمور بعقله، وهذا الانقلاب والزهـو والاغـترار لا يلائمـه إلا أن يقلب الله تعالى علـى الإنسـان قـوانين الكـون الـتي ظن أنه فهمها وتحكم فيها، فليحذر الكفار !

وليحذر أهل الإسلام ! من ظهـور علامـات السـاعة، وأولهـا طلـوع الشـمس مـن مغربهـا، فـإن مثـل هـذا الحـدث هـو المناسب لردع الإنسان في هذا الزمان، وما ذلك على اللـه تعالى ببعيد، فإن هذا التغير العظيم سوف يصـدم البشـرية كلها، ويوقعها فـي الحيـرة، ويجعـل يقظتهـا كأنهـا أحلام، إذ يتبدل ما ألفه الناس من غابر الأزمان، فلا تجد البشرية مـن سبيل إلى فهم ما جرى، إلا في الإسلام، ولعل أنسب وقـت لذلك هـو هـذا الزمـان، الـذي قَـرَّبَ فيـه الإعلام كـل بعيـد، وانتشرت فيه الأخبار انتشار النار في الهشيم، وقتها سيندم الناس حين لا ينفع الندم، ويؤمنون جميعاً ولكن بعـد فـوات الأوان، أخرج الإمام مسلم برقم (2941) عن عبد اللـه بـن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: حفظت من رسـول الله صلى الله عليه وسلم ما لم أَنْسَهُ بعد، سـمعت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يقـول: (إِنَّ أَوَّلَ الآيَـاتِ خُرُوجـاً طُلُوعُ الشـمَّسِ مِـنْ مَغْرِبِهَـا، وَخُـرُوجُ الدَّابَّـةِ عَلَـى النَّـاسِ

ضُحَى، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَـاحِبَتِهَا، فَـالأُخْرَى عَلَـى إِثْرِهَـا قَرِيباً).

وأخرج الشيخان من حديث أبي هريـرة قـال : قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : (لاَ تَقُـومُ السَّـاعَةُ حَتَّـى تَطْلُـعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَآهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَـا) وفـي رواية: (فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ، آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْـلُ أَوْ كَسَـبَتْ فِـي إِيمَانِهَا خَيْراً).

وقد دلت النصوص والآثار أن فتح روما من قِبَـلِ المسـلمين والفتح الثاني للقسطنطينية وخروج الدجال ونـزول عيسـى عليه الصلاة والسلام وقتال المسملين لليهـود حـتى يختـبئ اليهودي وراء الشجر والحجـر وخـروج يـأجوج ومـأجوج ثـم ظهور الريح التي تأخذ أرواح أهل الإيمان وتدع علـى الأرض شـرار النـاس والكفـار لتقـوم عليهـم السـاعة، كـل هـذه الأحـداث العظيمـة سـوف تـأتي بعـد طلـوع الشـمس مـن مغربها. وقد اعترض الإمام القرطبي رحمه الله علـى ذلـك فقال: (فلو كانت الشمس طلعت قبل ذلك من مغربهـا لـم ينفع اليهود إيمانهم أيام عيسى عليه السلام ولو لم ينفعهـم لما صار الدين واحداً بإسلام من أسلم منهم) ([15])، لكن هذا الاعتراض غير سديد، لأن الظاهر والله أعلم أن انغلاق باب التوبة خاص بالجيل الذي يشهد هذا الحدث العظيم، فيكون هذا الحدث بالنسبة لهم كمن صـار الغيـب عنـده مشـاهدة، فلا ينفعه بعد ذلك إيمـان ولا توبـة، أمـا مـن لـم يشـهد هـذا التغيير، ممن سـيأتي بعـد، فـإن إيمـانه بـإذن اللـه مقبـول، وعمله الصالح مرفوع، كجهاد مـن سـيجاهد مـع المهـدي أو قبله ضد الروم أو الدجال، أو مـن يجاهـد مـع عيسـى عليـه الصلاة والسلام ضد الدجال واليهود؛ ومما يشهد بصحة هـذا التوجيه، ما أخرجه الإمـام مسـلم برقـم (0492) عـن عبـد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ يَوْمـاً أَوْ أَرْبَعِينَ شَـهْراً أَوْ أَرْبَعِيـنَ عَامـاً، فَيَبْعَـثُ اللَّـهُ عِيسَـى بْـنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُـرْوَةُ بْـنُ مَسْـعُودٍ فَيَطْلُبُـهُ فَيُهْلِكُـهُ، ثُـمَّ يَمْكُـثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْـنَ اثْنَيْـنِ عَـدَاوَةٌ، ثُـمَّ يُرْسِـلُ اللَّـهُ رِيحاً بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ، فَلاَ يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحَـدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَـالُ ذَرَّةٍ مِـنْ خَيْـرٍ أَوْ إِيمَـانٍ إِلاَّ قَبَضَـتْهُ، فَيَبْقَـى شِرَارُ النَّـاسِ فِـي خِفَّـةِ الطَّيْـرِ وَأَحْلاَمِ السِّـبَاعِ لاَ يَعْرِفُـونَ مَعْرُوفـاً وَلاَ يُنْكِـرُونَ مُنْكَـراً)، وذكـر أن علـى هـؤلاء تقـوم الساعة. ومن تأمل هذا الحديث وغيره من الـدلائل الـتي لا

---

[15] التذكرة (3962).

يتسع المجال لبسطها علـم صـحة التـوجيه السـابق، واللـه أعلم.

واجب المسلمين كـي يكـون المس تقبل لهذا الدين :

إن مما دل عليه صحيح المنقول وصريح المعقول، أن طرق الاستنتاج العلمي الموصـلة إلـى بنـاء التصـورات وتحصـيل التصـديقات، تنحصـر فـي سـبيلين عـامين، همـا الاسـتنباط والاستقراء، وأن هـذين السـبيلين إذا التزمـا علـى وجههمـا الصحيح أثمرا في بناء صحيح العلوم وسليم المعارف، ممـا يكون له الأثر الحسن فـي تقريـر الأحكـام وبنـاء المواقـف، وإن من رحمة الله تعالى بالإنسان، أنْ فَطَرَهُ على المبادئ التي يميز بها الصواب من الخطأ والصدق من الكذب، قبـل أن تلقى إليه المعـارف أو يلقـن اللغـات، ولهـذا جعـل اللـه سبحانه وتعـالى الحجـة بينـه وبيـن خلقـه مـن هـذا البـاب، فـأمرهم أن يتـدبروا كتـابه فينظـروا هـل فيـه شـيء مـن التناقض الذي يعتري كل ما يسـتنتجه الإنسـان مـن العلـوم والمعارف، فقال تعالى: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَـدُوا فِيـهِ اخْتِلاَفـاً كَثِيـرا}، كمـا أمرهـم أن ينظروا في ما جاءهم به مـن أخبـار وأن يسـتقرؤوا صـدقها ليتبين لهم أن الحق الذي جاء من عنـد اللـه لا يتطـرق إليـه كذب أو يحوم حوله شك بسلطان، قـال تعـالى: {سَـنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَق}.

ولهذا، فإن كل مُستقرئ لِمَا أنبأ به النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم من أخبار، يعلم أنه إما قـد وقـع وتحقـق فـي سـالف الزمان، وإما أن دلائل تحققه موجبة له بيقين وبرهان، ومن ذلك الوعود والمبشرات الـتي تـدفع اليـاس عـن النفـوس، وتعيد الأمل إليها، وترسخ فيها اليقين على نصرة الله تعالى لأهل دينه، وتؤكد بما لا يدع مجالا للريب أن المستقبل لهـذا الدين. ولكن هذه المبشرات والوعود لا بد لأهل الإيمـان أن يلحظوا بخصوصها ثلاثة أمور:

الأول : إنه لا ينبغي الاعتداد منها إلا بما كان صـحيحاً حسبما تـوجبه قواعـد العلـم وأصـول النقـد الحـديثي، فـإن كثيراً من الروايات التي يعتمدها البعـض فـي هـذا الزمـان، ويبني عليها أحكاماً ومواقف، تكون ضعيفة أو موضوعة.

الثــاني : إن تأويــل أحــاديث الفتــن والمبشــرات لا ينبغــي أن يجــري علــى سـنن أهــواء النفــوس ومرامــي العواطف، بل ينبغي أن يُلتَزَمَ في ذلك بقواعـد أهـل العلـم، فلا يُنَزَّل الحديث إلا على ما اسْتُيْقِنَ أنه مَنْزِلـه، إلا مـا كـان مـن الأحـاديث الـذي تتضـمن معـاني وَحِكَمـاً لا تعلـق لهـا بخصوص زمان أو مكان، وقد سمعنا بإبان الحروب الصليبية الجديــدة علــى دولــة الإســلام فــي بلاد الأفغــان وعلــى المسلمين فـي العـراق، مـن التـأويلات البعيـدة والتحليلات العجيبة ما يدل على تسرع أهلها وغفلتهم عن ضوابط أهــل العلم.

الثالث : إن المبشرات والوعود النبوية تتضـمن فـي غالبها أوامر لتحصيل أسبابها والسـعي لإدراكهـا، فلا ينبغـي أن تكون ذريعة لترك العمـل للـدين والتخلـف عـن نصـرته، كمـا يفعـل بعـض الأدعيـاء الـذين خلطـوا الإرجـاء بـالجبر، فَعَطَّلوا مدافعة الباطل والنهـي عـن المنكـر، وفصـلوا بيـن الدين والسياسة باسم " السَّلفية " زعموا! ولتكن للمسلم أسوة في الطائفة المنصورة الـتي أخـبر النـبي صـلى اللـه عليه وسلم أنها تقاتل الدجال، مع علمهـا بـأن لا سـبيل لهـا إلى دفعه، وأن زوال أمره إنما يكون على يد عيسـى ، فلـم يثنها ذلك عن النهوض بالأمر الشرعي، وعدم تعطيل الجهاد في سبيل الله، فقد روى الحـاكم فـي مسـتدركه (4/497) عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول اللـه صـلى الله عليه وسلم قال: (لاَ تَـزَالُ طَائِفَـةٌ مِـنْ أُمَّتِـي يُقَـاتِلُونَ عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَـنْ نَـاوَأَهُمْ حَتَّى يُقَاتِـلُ آخِرُهُـمْ الدَّجَّالَ). ولهذا، فإن اجتهـاد المسـلم أولـى لـه مـن ترقـب الوعـود عَلَهَـا تقـع فـي زمنـه أو لا، بـل الـواجب عليـه أن يتشوف إلى المساهمة فـي تحقـق الوعـود الإلهيـة فيحضـا بفضيلة التسبب في حصولها.

على أن الأمة اليوم في مسيس الحاجة إلى بث المبشرات في صفها، وترديد الوعود الإلهية بين أبنائها، دفعاً للإرجـاف الـذي يمارسـه مـن حطمـت الهزيمـة نفسـه، فصـار إلـى التخذيل والتثبيط، وإبطالاً لكيد العَلْمَانِيين الذين يريدون أن يطفئوا جذوة الإيمان في قلـوب المسـلمين، ويقنعـوهم أن زمن الإسـلام ولـى إلـى غيـر رجعـة، وأن اسـتئناف الحيـاة الإسلامية حلم خيالي لا سبيل إلى تحقيقـه البتـة. وأيـن مـا يزعمــه هــؤلاء الســفهاء ذوي العقــول الكليلــة والبصــائر المنطمسة من قول الله جل وعلا: {وَعَدَ اللَّهُ الَّـذِينَ آمَنُـوا مِنْكُـمْ وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ لَيَسْـتَخْلِفَنَّهُمْ فِـي الأَرْضِ كَمَـا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَلَيُمَكِنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى

لَهُـمْ وَلَيُبَـدِّلَنَّهُمْ مِـنْ بَعْـدِ خَـوْفِهِمْ أَمْنًا}، وقـول الصـادق المصدوق : (لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلاَ يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزّاً يُعِزُّ اللَّهُ بِـهِ الإِسْـلاَمَ، وَذُلاًّ يُـذِلُّ بِـهِ الكُفْـرَ) [16]، وقوله : (تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضاً ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرياً ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت) [17]. وما أولئك العَلْمَانيين المحاربين لدين الله تعالى إلا كما قال الله عز وجل: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِـأَفْوَاهِهِمْ، وَاللَّـهُ مُتِـمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُون}.

وها هي بحمد الله دلائل الفَرَج لائحة، وعلامات خروج الأمة مِنَ التِّيْهِ بادية، ويقظة أهل الإسلام قريبة، وإن شئنا أن نحصي من ذلك شيئا، فلنذكر من ذلك مظهران بارزان:

الأول : دخول الإسلام كطرف في الصراع، فليس يخفى أن أعداء الإسلام من صليبيين ويهود وعَلْمَانيين قد عملوا منذ أمد بعيد على تحييد الإسلام عن جميع المعارك، وعدم القَبُول به طرفاً في أي صراع، لِعِلْمِهِمْ الأكيد أن قدرة الإسلام على شحذ الهمم وتقوية النفوس لا يعادلها شيء ولا يقوم في وجهها بإذن الله أمر، وقد استطاعوا تحييد الإسلام في معركتين أساسيتين، أولاهما، معركة المسلمين مع اليهود في فلسطين، وثانيهما، معركة المسلمين من أجل التنمية والخروج من بوتقة التخلف.

لَكِنَّ الأحداث المتلاحقة والوعي المتراكم جعل كثيراً من المسلمين يُدْرِكُون أن الصراع بينهم وبين أعداء الأمة في الداخل والخارج صراع ديني، سواء كان هذا الصراع ضد من يروم احتلال بلاد الإسلام وتدمير ما بقي من مقومات الأمة، أو كان ضد من يصبو إلى التمكين لمناهج العَلْمانية وتجفيف منابع الدين فيها.

وقد ظهر فشل مخطط الأعداء في تنحية الإسلام عن ساحة المعركة، في البروز المتتالي للأحزاب الإسلامية وحركات المقاومة وجماعات الإصلاح التي تحاول -حسبما

---

[16] رواه أحمد (44361)، وهو في السلسلة الصحيحة (1/7) للألباني.

[17] السلسلة الصحيحة (81).

ثقفته من الإسلام- أن تقف في وجه المعتـدين علـى الأمـة في دينها وخيراتها وأعراضها، وقد بلغ هذا البروز الإسـلامي أوجه بفضل الله فـي الآونـة الأخيـرة حيـن ارتفعـت رايـات الجهـاد، وشـاعت فـي الأرجـاء أصـوات العلمـاء الصـادعين بالحق، حتى كادت الأحداث العالمية الكبيرة لا تقوم إلا وقد دخل الإسـلام طرفـاً فيهـا، فالحمـد للـه الـذي تتـم بنعمتـه الصالحات.

الثاني : ثبات المؤمنين علـى دينهـم، فـإن المتأمـل فـي أحـداث هـذا الزمـان ومـا قبلـه، ليلحـظ بجلاء، أن المسلمين من أدنى الأرض إلى أقصاها قد تعرضوا إلـى مـا لم يتعـرض إليـه ولا إلـى قريـب منـه غيرهـم، فاسـتعمرت أوطانهم، ونُشِرَ الفساد بينهـم، وَبُـثَّ الضـلال فـي أبنـائهم، وَأُعْمِلَ فيهم سيف التجهيل والتغريب والتنصـير، وَأُفْسِـدَتْ مناهج تعليمهم، وَدُجِّنَ علمـاؤهم، وَحُـورِبَ الصـادقون مـن دعاتهم، وألصقت بهم التهم الشـنيعة والأوصـاف الوضـيعة، وتعرضوا للإبادات الجماعية، وَأُعْمِلَ فيهم التقتيل والتهجيـر على يد الشيوعيين، وعلى يد العَلَمَانيين، وعلـى يـد اليهـود، وعلى يد الهندوس، وعلى يد الصـين، وعلـى يـد الصـليبيين الجدد، وغيرهم.

وهذه المحن العظيمة والبلايا الشـديدة، وإن ألحقـت فئامـاً كثيرة بالمشركين والمنافقين، إلا أنها لم تنفـع فـي اجتثـاث جذوة الإيمان من قلوب الملايين من المسلمين، ولم تنجـح في ثني الدعاة والمجاهدين عن نصرة هذا الدين، بـل علـى العكس من ذلك ضاعفت مـن أعـداد الناصـرين لـدين اللـه تعالى، وأوقدت الغيرة في نفـوس الكـثير مـن المسـلمين، ولن يرى الصليبيون والعَلَمَانيون من ذلك إلا المزيد إن شاء الله تعالى، كلما اشتدت وطأتهم علـى المسـلمين ودينهـم، والحمد لله رب العالمين.

ولا يُنْتَظَرُ من عموم الأمة أن تقوم بنصرة هـذا الـدين، فـإن ذلك لا يصح لا في العقل ولا في الشرع، ولم يتحقق في أي وقت أو حين، لأن الأمـر كمـا أخـبر النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم : (إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِلِ المائَةِ لاَ تَكَادُ تَجِدُ فِيهَـا رَاحِلَـة) ([18])؛ فالأمل معقود بإذن الله تعالى على العلماء الصـادقين والـدعاة المخلصـين والمجاهـدين، الـذين يعلمـون الحـق، ويرحمون الخلق، ويفقهون أدواء الأمـة، ويعلمـون دواءهـا، ويميـزون بيـن العـدو والـولي، ويتـبرؤون م ن كـل عَلَمَـاني غـوي، ويـبرؤون إلـى اللـه مـن الشـرك والبـدع والأهـواء،

[18] رواه البخاري برقم (6133) ومسلم (2547).

واجب الأمة في المرحلة الراهنة

ويصطبرون على كيد الأعداء، ويؤمنون أن دين الله لن ينتصر بمناهج الرخاء.
على أن الطريق لا يزال طويلا، إذ الأعداء يتكاثرون، والمنافقون يتزايدون، والمخذِّلون يتضاعفون، والمنهزمون يتراكمون؛ فعلى الدعاة الصادقين أن يثبتوا ولا ينثنوا، وأن يستعينوا على نصرة دين الله تعالى وإنقاذ الأمة في هذا الوقت العصيب بأمرين اثنين:

الأمر الأول، الصبر والاستعانة بالله، فإن تجبر الأعداء، وتكالب المنافقين والعَلمَانيين، لا ينبغي أن يفل من عزائم أهل الحق، بل عليهم أن يُوقِنُوا أن الصبر على البلاء موجب لحسن العاقبة، ومقتض لنصرة الرب جل وعلا، وأن مع العسر يسرا؛ وإن نسي أهل الحق فلا ينبغي أن ينسوا أن أمر هذا الدين قائم على الابتلاء والمصابرة، وأن تربية الرجال فيه لا تتم إلا بالمدافعة، وأن النصر فيه لا يأتي إلا بالمجاهدة، وأن التمكين لا يأتي إلا بالمكابدة، وأن سلعة الله غالية، وليذكروا كم عانى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من إذاية الكفار وحصارهم، وكم طال استضعافهم، حتى جاءهم الفرج بعد لأي، وقد قال الله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}، وقال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}.

وقد ذكر الله تعالى لنا عُتُو فرعون وعلوه على المستضعفين من أتباع موسى عليه السلام، بما يماثل -بل يساوي- عتو المستكبرين والجبارين اليوم، فقال تعالى: {وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ، قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ}، فما كان جواب موسى عليه الصلاة والسلام، وهو الرسول الكريم المؤيد من قبل الله تعالى، إلا أن قال لبني إسرائيل، كما قال الله تعالى: {وَقَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}، وهذه السجون والمعتقلات التي تقام لأنصار الدين، والقوانين التي تسن لإرهاب المستضعفين، والخطط التي ترسم للنيل من أخلاق وأحكام دين رب العالمين، باسم صيانة " حريات " الهوى والشيطان، وتأليه " حداثة " الغرب والخسران، والحكم بين الناس بالديموقراطية وأهواء الإنسان، لن تضر الإسلام في شيء، ولن تقضي على أهل

واجــب الأمــة فــي المرحلة الراهنة

الحق، ولـن تعيـق تحقـق وعـد اللـه تعـالى بسـيادة الـدين، ورجوع الخلافة على منهـاج النبـوة الـتي وعـد بهـا الصـادق الأمين، فلا ينبغي لأهل الحق أن يستنكفوا عن نصرة الدين، أو ينكلوا عن العمل، أو يتطرق إلى نفوسهم اليأس والملل، فـإن الصـبح بـإذن اللـه قريـب، وهـم فـي مـدافعتهم لأهـل الباطل فائزون بإحدى الحسنيين، ولا ينبغي أن يغفلـوا عـن أعظـم وسـيلة للمستضـعفين لا يتركهـا إلا قسـاة القلـوب وأهل الغفلة عن معاني العبودية لرب العالمين، قال تعالى: {فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا، وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّـنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُون}.

وليُعْلَم، أن من أعظم أبواب الصبر في هذا الزمـان، تريـث أهـل الحـق وعـدم الاسـتعجال، فـإن مـا فسـد فـي عقـود وقرون، لا يمكن أن يُصْلَحَ في أيام أو شهور، ولهذا فقد قال أئمتنا: (من استعجل الشيء قبـل أوانـه عـوقب بحرمـانه)، فلا ينبغي الاسـتعجال فـي التغيير، ولا ينبغـي التسـرع فـي التـدبير، بـل ينبغـي أن يُقَـدَّرَ لِكُـلِّ حَـالٍ مـا يُنَاسـبُهَا، وأن يسترشد في ذلك بفتاوى أهل العلم الربانيين، وطلبة العلم الصَّـادقين، الـذين لهـم علـم بكتـاب اللـه وسـنة رسـوله ، ويلـتزمون بمنهـج السـلف، ويهتـدون بهـدي أئمـة السـنة، ويفهمون واقع الأمة، ويفقهون دلائـل المنقـول والمعقـول، ويقولون الحق ولا يخافون في الله لومـة لائـم، ولا يركنـون إلى ظالم، ولا يُخَذِّلُونَ عن أنصار الحق، فهؤلاء الذين ينبغي الثقة بهم، والتقيد بكلامهم، والحـرص علـى الارتبـاط بهـم، وهـم وللـه الحمـد ظـاهرون علـى قلتهـم، متميـزون رغـم التعتيم والاضطهاد.

الأمر الثاني، البيان الصادق، فإن من أعظـم أسـباب نصـرة الدين، وأهم وسائل المدافعة والجهاد، البيان الصَّـادق لهـذا الدين، فقد أخرج الإمام مسـلم فـي كتـاب الإيمـان برقـم (71)ـ من حديث عبد الله بن مسعود رضي اللـه عنـه قـال: قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: (مَـا مِـنْ نَـبِـيٍّ بَعَثَـهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّـونَ وَأَصْـحَابٌ، يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ، وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَـا تَخْلُـفُ مِـنْ بَعْـدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرُونَ، فَمَـنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُـؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ).

وقد أرسل الله تعـالى موسـى عليـه الصـلاة والسـلام إلـى فرعون وَمَلَئِهِ، ولم يبعث معه جيوشـاً ولا عتـاداً، ومـع ذلـك

قال تعالى : {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُـلْطَانٍ مُبِيـن}، وإنما كان معه ما تقـوم بـه الحجـة والبيـان علـى صحـة مـا أُرْسِلَ بِـهِ، وبطلان مـا عليـه خصـومه، فـإن السُّـلْطَان فـي كتاب الله تعالى "نوعان: سلطان الحجة والعلم، وهـو أكـثر ما سمي في القرآن سلطاناً، حتى روى ابن عبـاس أن كـل سلطان في القرآن فهو سلطان الحجة، والثـاني: سـلطان القدرة، والعمل الصالح لا يقوم إلا بالسلطانين " ([19]).

ولا يكون البيان مستوفياً لشـرائط الحـق وقاضـياً بمدافعة الباطل ما لم يكن ناهضاً بما يلي:

أولا: إقامــة الحجــة علـى الخلـق، فـإن اللـه تعـالى خَاطَبَ نبيه وهو مستضعف في مكة بقوله: {وَجَاهِـدْهُمْ بِـهِ جِهَاداً كَبِيرا}، أيْ بالقرآن الكريم، فقد جعل الله تعالى فـي كتابه من دلائل الحق، وبينات الهُـدَى، مـا هـو قـاض بإقامـة الحجة على الخلق أجمعيـن، فـإذا واجـه أهـل الإيمـان أهـل الضلال والكفر والطغيان بما في كتاب الله تعالى من هـدى وبينات، فإن صوت الحق سيعلو، وصوت الباطـل سينحصـر أو يخبو، ولكن كثيراً من دعاة الإسلام في هذا الزمـان، لـم يقومـوا بـواجب إقامـة الحجـة علـى النـاس، بـل شُـغِفُوا بالمداهنة، وكتمان بعض الحق، وتأويل النصوص بما يناسب أهواء أهل العصر، حِرْصاً منهـم علـى الـدنيا، أو خوفـاً مـن الابتلاء، أو غير ذلك من أسباب الالتواء. وقد نَبَّهَ النبي صلى الله عليه وسلم على أن بيان الحق من أجل إقامـة الحجـة، من أعظم القربات إلى الله تعالى، حتى ولو كان فيه إتلاف النفس والتعرض لما يظنه بعض المتفيهقين هلاكا، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: حدثنا رسول اللـه صـلى الله عليه وسلم يوماً حديثاً طويلاً عن الدَّجَّال، فكـان فيمـا حدثنا قال: (يَأْتِي وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ نِقَـابَ المَدِينَـةِ، فَيَنْتَهِي إِلَى بَعْضِ السِّبَاخِ الَّتِي تَلِي المَدِينَـةَ، فَيَخْـرُجُ إِلَيْـهِ يَوْمَئِذٍ رَجُلٌ هُوَ خَيْرُ النَّاسِ، أَوْ مِنْ خَيْـرِ النَّـاسِ، فَيَقُـولُ لَـهُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ الدَّجَّالُ الَّذِي حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّـه صـلى اللـه عليـه وسـلم حَـدِيثَهُ، فَيَقُـولُ الـدَّجَّالُ: أَرَأَيْتُـمْ إِنْ قَتَلْـتُ هَـذَا ثُـمَّ أَحْيَيْتُهُ، أَتَشُكُّونَ فِي الأَمْرِ؟ فَيَقُولُونَ: لاَ، فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يُحْيِيـهِ، فَيَقُولُ حِينَ يُحْيِيهِ: وَاللَّهِ مَا كُنْتُ فِيكَ قَطُّ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّـي الآنَ، قَالَ: فَيُرِيدُ الدَّجَّالُ أَنْ يَقْتُلَهُ فَلاَ يُسَلَّطُ عَلَيْهِ) ([20]).

---

[19] مجموع الفتاوى (2919).
[20] رواه البخاري برقم (6713) ومسلم برقم (8392).

فهذا رجل في مأمن من فتنة الدجال، ولكن أبى عليه علمه وخوفه من اللـه تعـالى، إلا أن يخـرج ذاك الطـاغي الجبـار، فيواجهه بكلمة الحق، حتى يُظْهِـرَ للنـاس بـاطله، ويكشـف ضلاله، ويفضح تلبيسه، {لِيَهْلِكَ مَـنْ هَلَـكَ عَـنْ بَيِّنَـةٍ وَيَحْيَـى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَة}.

فأين هـذا مـن مشـايخ السُّـوء فـي هـذا الزمـان، وفرسـان الفضائيات، الذين لم يمنعهم الحياء من اللـه تعـالى مـن أن يسـكتوا، ولـو فعلـوا لأراحـوا واسـتراحوا! بـل شـاركوا بألسنتهم في الفتنة التي يرزح تحت نيرها المسلمون، تـارة بالتصريحات التي تُظْهِرُ العَلْمَانيين فـي صـورة المصـلحين، وتارة بالفتاوى التي تجَيز المشـاركة فـي قتـل المسـلمين، وتارة بالآراء التي تبيح تسلط الكفـار علـى بلاد المسـلمين، وتارة بالمواقف التي تُخَذِّلُ عن أنصار الحق والـدين، وتـارة بالتـأويلات الـتي تُحَـرِّضُ أعـداء الـدين والظـالمين علـى المستضعفين مـن الـدعاة والعلمـاء والصـالحين، فيفعلـون في المسلمين بألسنتهم ما لا يفعله الأعداء فيهم.

ثانياً: النكاية بأعداء الـدين، فـإن الحملـة المسـعورة على العلماء والدعاة الناطقين بالحق في هذا الزمان، تنبئ كل ذي عينين بمقدار ما تفعله كلمة الحق في نفـوس أهـل الظلـم والطغيـان، ولا غَـرْوَ فـي ذلـك، فقـد كـان العـداء المستميت الذي يواجه به الأقوامُ أنبيـاءَهُمْ، إنمـا سـببه مـا كان يصدع به الأنبياء والمرسلون من حـق، ويكشـفونه مـن ظلم وباطل، كما بَيَّنَ الله تعالى في كتابه الكريم؛ فلا ينبغي للمسلم أن يُقَلِّلَ من شأن البيـان، وأن يعتـبره وسـيلة غيـر ذات بال، فإن تأثيره في النفـوس، ودوره فـي التمييـز بيـن الصفوف، وعمله في إيضاح الحق وكشف الباطل، لا يخفى إلا على من خفيت عليه سنن التغيير، وتاه عن سبيل الأنبياء والمرسلين.

ثالثاً: حَلْبُ الأنصارِ للدين، سواء أكان هـؤلاء الأنصـار من أهل الإيمان، أو ممن قال فيهم النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم : (إِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ) ([21])، فـإذا كان البيانَ صادقاً وقوياً وناهضـاً بأسـباب التـأثير والإقنـاع، نفع في جلب الأنصار الذين يستظهر بهم أهل الإيمان علـى أعداء التوحيد والإسلام، ومن نظر في سـير الأنبيـاء، وعلـم أنهم جميعـاً كـانوا يُتَّهَمُـونَ بالسحر، تـبين لـه مقـدار تـأثير بيانهم في جلب النـاس إلـى صَـفِّهِمْ، ومقـدار تفريـط أهـل الإسلام اليوم في عـدم الرقـي بخطـابهم، وعـدم اسـتغلال

[21] رواه البخاري برقم (3062)، ومسلم برقم (111).

الوسائل والأحداث، وعدم التزام دقيق الضـوابط الشـرعية ورفيع التوجيهات الربانية، في دعوة الأعداء والخصوم إلــى الإسلام، حتى يُستخلص من بينهم من يدخل فـي ديـن اللـه تعالى وينصر شريعته، أو يُعين أهل الحق وينافح عنهم، كمـا كان بعض المشـركين يحـامي عـن النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم أو يَتَحَالَفُ معه.

فإن سيادة الإسلام وعزة أمتـه ليـس رحمـة لأهـل الإسـلام خاصة، بل هو رحمة للعالمين عامة، فإن الحياة تحـت رايـة الإسلام وفي حكـم شـريعة الرحمـن، لا تعادلهـا فـي الخيـر حياة، ولا يبلغ إلى ما فيها من العدل منهـاج، سـواء بالنسـبة للمسـلمين، أو غيرهـم مـن أهـل الملـل، كمـا يشـهد بـذلك العقل الصريح، والتجربة خلال التاريـخ، فشـتان بيـن شـرع من خلق ويعلم ما خلق وهو اللطيـف الخـبير، وبيـن أحكـام من علمه قليل، وجهله كثير، وعقله لا يُمكنه من تدبير حياته الخاصة بشكل سالم من الأخطاء والميل مع الأهواء؛ وكيف يعقل أن يسوى بين شرع الله الحكيم العـدل العليـم، وبيـن مـا وضـعه مـن هـو مطبـوع علـى الجهـل والظلـم والميـل والحيف بيقين .

ولهذا جعل الله تعالى اتباع شرعه دليلا على ارتضاء أسـمى حياة, و الإنصياع لمُقتضى العقـل الصريح, كمـا فـي قـوله تعالى: (و لكم في القصاص حيـاة يـا أولـي الألبـاب لعلكـم تتقون).

أما التبرم من دين رب العالمين, ومحاربة شرعه الكريم, و استضعاف أهله المؤمنين, فـانخراط فـي الظلـم, ودخـول فـي التنـاقض, وجلـب لأعظـم المفاسـد, وتغريـر بـالخلق, وقطع للناس كافة عـن رحمـة رب العـالمين, وكـم .. وكـم خسر العالم بانحطاط المسلمين.

نشر في مجلة نداء الإسلام
العدد الثاني ؛ السنة العاشرة
جمادى الأول - رجب 1424هـ

تم تنـزيل هذه المادة من منبر التوحيد والجهاد

http://www.tawhed.ws
http://www.almaqdese.com
http://www.alsunnah.info